

économique, culturel et social, par conséquent, sa raison sociale est à but non lucratif.

Les organisations humanitaires comme la Croix Rouge, les ONG, la presse indépendante et même les professions libérales telles les avocats, les médecins, les universitaires, qui en sont la force sociale principale, comptent également au plan international.

La société civile est caractérisée par l'association volontaire, la base d'une vie autonome au plan organisationnel. Elle est la fois dépendante et indépendante de l'Etat, en ce sens qu'elle est, en certaines circonstances, partenaire du pouvoir politique, et agit en d'autres circonstances tel un contrepuissance.

Mais peut-on parler de consolidation des droits et des libertés ?

En matière de promotion des droits et des libertés, la société civile reste en deçà des attentes du citoyen, n'étant pas souvent en mesure d'exercer une réelle influence dans les sphères du Pouvoir politique et de produire de réels impacts dans le sens de simplement les faire respecter. Et ceci semble imputable au fait que la société civile ne dispose pas encore des moyens de sa politique. Et pour cause, l'idée même de parler des droits et des libertés signifie l'existence en amont d'un contrat social entre le gouverneur et les gouvernés, selon lequel le premier acquiert certains pouvoirs en offrant en contrepartie, entre autres, des droits fondamentaux aux seconds. Et ceci n'est pas sans conséquences puisque le pouvoir abuse souvent de sa puissance, une puissance pourtant supposée frappée de nullité dès lors que ces mêmes droits et libertés défendus par la société civile sont qualifiés

1. المجتمع المدني ودوره في تعزيز

احترام الحقوق والحريات

1.1. الأستاذ: عبد القادر زيغم: طالب

في طور الدكتوراه السنة الثالثة

(مكتمة) جامعة الجلفة

مقدمة:

La société civile et son rôle dans la consolidation des droits de l'homme et des libertés.

La notion de société civile renvoie à l'ensemble des citoyens se mouvant en dehors de l'Etat. La société civile dont le champ d'action touche à la culture politique, est balbutiante et commence seulement depuis peu à devenir un sujet académique intéressant les chercheurs. Pourtant elle occupe une place prépondérante dans l'espace public, et date de longtemps, puisque son existence est bien antérieure à la démocratie moderne.

Hegel la définissait déjà comme le terrain de rencontre d'intérêts contradictoires (Etat-citoyen), une notion complexe, c'est-à-dire l'espace sociétal traditionnellement opposé à l'Etat, une conception qui rejoint d'ailleurs celle de **Karl MARX** selon qui la société civile serait un ensemble de relations enchâssées dans le marché.

Ses acteurs se trouvent en dehors de la politique, et sont composés des intellectuels et de figures historiques et patriotiques, de notables régionaux, d'organisations apolitiques, agissant dans un but purement humanitaire, ayant rapport aux droits et libertés, à la démocratie et au développement

فالحقوق لا يمكن أن يتم كفالتهما من الفرد المعتدى عليه، فهو في تلك الفترات في أوج درجات الوهن، وبالتالي يحتاج إلى الكيان المجتمعي المتمدن.¹

من جانب آخر، فإن جوانب التحضر والتفوق في الدول المتقدمة والمتحضرة يكون المجتمع المدني قائما على أسس حضرية، أما الدول بخلاف ذلك، يكون فيها المجتمع المدني في كثير من الأحيان عميلا وغير فاعل، إن لم نقل أنه منشأ من النظام الحاكم ذاته.

أما عن الصعيد الدولي فنجد أيضا مجتمعا مدنيا معبرا عنه بالمنظمات الدولية غير الحكومية (غير منشأة من الحكومات ولكن معترف بها) وهي بذات الصورة تخضع في كثير من الأحيان إلى نوايا مبيتة، فنجد منشأ منظمة الصليب الأحمر التي لها اسهاماتها الكبرى في حماية الحقوق زمني السلم والحرب في الكثير من الدول، لكن المتمعن في نشأتها والباحث في تاريخ منظمة الصليب الأحمر الدولية وتاريخ جون هنري دونان Jean-Henri Dunant 1828 - 1910، يجد بأن المسمى (الصليب الأحمر الدولية) قائم على العنصرية الصليبية (الصليب)، كإعادة لابتعاث العنصرية الكنسية، ثم إن هذا الشخص المدعى بأنه أول من أسس لقواعد القانون الدولي الإنساني وأول من ربط بين دور المجتمع المدني وحقوق الإنسان، هو ذاته مسيحي بروتستانتي، تبين فيما بعد أنه عميل للعنصرية مختلق، وكان يعمل بأجرة وبأهداف مبيتة.²

أولا: الإطار المفاهيمي لاصطلاح المجتمع المدني

¹ المجتمع المدني يقول البعض أنه مقتبس من المدنية (مدنية المجتمع، أي ضد البداوة فهو مرتبط بالمدينة خاصة بعد تشعب مجالات الحياة فكانت الحاجة ملحة لإنشاء مجتمع مدني ليست كهيئة وإنما كتعبير لأن la ville يكون المجتمع كله مدنيا. ويقول البعض أن المقصود هو عنصر مواجهة فبعدها كانت الأرستقراطية هي السائدة والتي تجلت فيما بعد على شكل استبداد وأنظمة عسكرية شمولية كان لزاما أن ينشأ مجتمع مدني في مواجهة ذلك.

² مصطفى خياطي، هنري دونان الأسطورة الزائفة، دار الخلدونية، 2011.

de «fondamentaux», et se placent donc en haut de la hiérarchie des normes. Cet état des choses, en l'occurrence la relation entre l'Etat et ses citoyens, n'est pas près de changer de nature, en dépit de l'internationalisation de la protection et de la promotion des droits et des libertés.

إن الحديث عن المجتمع المدني هو الحديث عن البناء المتكامل للدولة الحديثة التي يكون فيها المجتمع المدني في مستوى تطلعات المجتمع؛ كنواة رئيسية وتكون فيه السلطة في مستوى اسهامات هذا المجتمع المدني.

فالعلاقة مترابطة ومتشعبة بين الفرد والمجتمع المدني ونظام الدولة ككل، ولا يمكن كحقيقة علمية وواقعية أن يصلح طرف دون الثاني، فالمجتمع المدني لا يؤدي دوره إلا بوجود المواطنة الصالحة ولا يتحقق مراده إلا ب " الحكم الراشد".

فالمجتمع المدني كحلقة قوية هو بين مؤثر ومتأثر، لذا يصعب الحكم عليه بالنجاح أو بالفشل لأن ذلك مرتبط ببقايا حلقات الدولة.

وهذا نفسه ما هو مطروح في فكرة المجتمع المدني الدولي المعبر عنه بالمنظمات الدولية، خاصة العانية بحقوق الإنسان، فهي لم تكن فيما يجب أن تكون عليه، لأنها وقعت تحت التأثير بالقوى الكبرى، وبإملاءاتها المتعددة، ولم يكن دفاعها عن حقوق الانسان إلا حديثا عن شعارات لا طائل من ورائها، بل منافق لأعمالها لا موافق لها.

وفكرة المجتمع المدني ليست بعيدة عن فكرة الكومنولث Commonwealth التي عبر عنها مالك بن نبي ب كومنولث إسلامي كأداة قانونية وعملية لمواجهة كل مظاهر التعدي على الحقوق بمعناها الشامل والعام، وإن كانت فكرة الكومنولث أقرب من التنظيم "المنظمات" الدولي في المجتمع الدولي.

ثم إن العلاقة بين المجتمع المدني والحقوق والحريات مهمة وثيقة الصلة من جهة ومربية من جهة ثانية،

بوصفه تقدما بواسطة الفكرة المحورية التي يسميها هيجل الروح المطلق ويعني بالروح الاتجاهات الأخلاقية التي يجب أن تكون مجسدة في المؤسسات والنظم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي تحكم الحياة الانسانية، وتظهر الروح بشكل كامل كفهم تام، ممكن أيضا لكل التصورات الأخلاقية التي تحكم الحياة وما يوافقها من الأشكال الدستورية أو القانونية المعروفة للبشرية، ولأن الدولة الهيكلية هي التي تجسد الضروري للروح المطلق، فهي تراقب المجتمع المدني الذي هو مجال المصالح المتنافسة، وجعلت للمجتمع المدني مقاييس أخلاقية ضرورية، وبفضل الاتجاه الأخلاقي المقدم من الدولة يمكن أن يكون هنالك كثير من المصالح المختلفة في المجتمع المدني، ولكن في ذات الوقت لن يكون هنالك متنافسة مدمرة ⁵ une compétitivité destructrice.

وقد عمل ماركس على قلب فكرة هيجل بالاستدلال على أن الروح المطلق ليس هو الذي يخلق المسار الذي نسلكه لنرى ونفهم أنفسنا، ولكن عملية التفكير هي التي تخلق الروح المطلق، ويؤكد ماركس في نقده ل فلسفة الحق عند هيجل أن هذا الأخير لم يوفق في فهمه للعلاقة المناسبة بين الدولة والمجتمع، وفي منظور هيجل الأمل الأعلى هو الدولة التي تجسد تصوره للحياة الأخلاقية، وتخلق هذه الدولة الشروط أيضا التي تحدد الأساس للحياة الإنسانية، غير أنه عند ماركس الديمقراطية هي التصور الأعلى الذي يمكن تجسيده من قبل الدولة.⁶

وضمن البناء الديمقراطي يعمل المواطنون جميعا على الإسهام بإخراج دستورهم الخاص وشروط وظروف عيشهم، وفي ذات الوقت يصفون شروط ربط الدولة بمواطنيها، يبدأ هيجل من الدولة ويجعل الإنسان خاضعا للدولة، وتبدأ الديمقراطية من الإنسان وتجعل الدولة تشكيلا للإنسان، وكان ماركس يعتقد أن

لا تزل مفاهيم المجتمع المدني في نهوضه الأخير تركز على العكاز الجمهوري المنطلق من الخير العام le Bien public ou l'Intérêt public وعكاز الديمقراطية المباشرة كبديل للديمقراطية التمثيلية في غيرها من وكتمكمل لها.³ وبعد تفكك المعسكر الشرقي وتحديد نهاية 1989 تجلى أن المجتمع المدني يطرح نفسه بشدة كأساس لبناء الديمقراطية، وأصبح التقليد أكبر سمة لتقليد الغرب في كل ما ينحوه (رغم وجود البدائل النابعة من مقوماتنا والموروث التاريخي لمجتمعاتنا) واعتبر المجتمع المدني من المنظور السياسي أداة للحد من استبداد الدولة.

وفي إطار المفهوم العام للمجتمع المدني قد يحصل الإشكال إلى أن يتحول دوره إلى جماعات ضاغطة ليس بالمدلول الهادف للوصول إلى آفاق مفصلية في تحقيق أبعاد قومية أو حتى عنصرية، وإنما لتحقيق بعض المآرب والمصالح المادية مثل ما هو موجود في العديد من الأنظمة، حيث يتحول دور المجتمع المدني إما إلى دور سلبي ينتفي معه الدور الحقيقي له، وإما (في حالة النشاط)، يتحول إلى هيئة مصلحة أو ربحية، جراء ما يتوافر عليه من غطاء قانوني، ونتيجة ادراكها لمواطن ضعف القائمين على المؤسسات الرسمية للدولة.

وحتى عند الحديث عن مفهوم المجتمع الدولي سيتغير ويختلف ذلك مع تغير الموقف الايديولوجي للمتكلم، فالمفهوم الليبرالي لهذا المصطلح يختلف عن الفهم الاشتراكي الديمقراطي وعن الديمقراطي الراديكالي وأيضا عن المدلول الاسلامي.⁴ كما يختلف المفهوم مكانيا وزمانيا في البيئة ذاتها.

1. النقد الفلسفي للمجتمع المدني:

أكد هيجل في كتابه فينومولوجيا الروح La phénoménologie de l'esprit، أن التاريخ يمكن فهمه

⁵ ستيفن م ديلو، التفكير السياسي والنظرية السياسية والمجتمع المدني، نُقاد المجتمع المدني، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2008، ص 20.

⁶ المرجع السابق، ص 21

³ عزمي بشارة، المجتمع المدني، دراسة نقدية، مع الإشارة للمجتمع المدني العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص 12

⁴ المرجع السابق، ص 30

الديمقراطية كشكل للحكومة هي التعبير الصحيح وحده عن المصالح العامة للناس.⁷

والواضح أن ماركس رفض مطلقاً اقتراح هيجل أن البيروقراطية تقوم على الطبقة المثقفة والموظفين المدنيين المتعلمين جيداً الذين يحملون فكرة الروح المطلق ويشكلون المجتمع المدني بالطريقة التي هي أقدر على تحقيق هذا التصور في الممارسة.

وهيجل في ملخص نظريته يرى أن المجتمع المدني ميدان حرب للمصالح الخاصة، وتوقع هيجل أن الدولة تعمل على تحويل المجتمع المدني جهازاً للمصالح المشتركة.

وفي منظور ماركس فإن الديمقراطية يبلون بإملاءات الدولة لذا يلقوا الدعم المستمر من الدولة، وكلٌّ يهدف لتحقيق طموحاته المادية.

وقد ذكر ماركس أن الدولة العلمانية الحديثة تقدم وجوداً مزدوجاً يكون فيه الأفراد من الناحية الأولى أعضاء في المجتمع المدني يرون أنفسهم كأشخاص خاصين يتابعون مصالحهم الخاصة، ويبحثون عن رخائهم الخاص، ومن جانب آخر يرى الأفراد أنفسهم بوصفهم مواطنين يعملون من أجل الخير المشترك.⁸

ويرى أيضاً ماركس أن حقوق الإنسان في الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان والمواطن في 1793 معناها بالنسبة لماركس حقوق أعضاء المجتمع المدني، أي الإنسان الأناني أو المحب لذاته، الإنسان المنفصل عن الناس الآخرين وعن المجتمع.

وكانت الفكرة التي أشار إليها ماركس هي الحق في الحرية والملكية والمساواة والأمن، فالحرية هي حق المرء في أن يفعل ما يريد طالما أنه لا يؤذي غيره.

وذكر كذلك ماركس أن " الحرية في المجتمع المدني بوصفها حقاً للإنسان ليست موجودة بموجب العلاقات بين الإنسان والإنسان، بل بالأحرى بموجب انفصال

الإنسان عن الإنسان وتكون الحرية حق الانفصال، حق الفرد المحدد في انسحاب الفرد نفسه."⁹

وقال: " التحرر الإنساني سوف يكون كاملاً أيضاً عند اندماج الإنسان الفرد الحقيقي فهو نفسه المواطن المجرد، عندما يدرك وينظم قدراته الخاصة بوصفها قدرات اجتماعية، لذلك هو لم يعد بفصل قدراته الاجتماعية عن ذاته بوصفها قدرة سياسية."

والمشكلة بعدها تكمن في الحقوق السياسية مع الخطوة التقدمية الهامة، وهنا يستخدم الناس حريتهم ويستمر تشجيع الوجود الأناني الفردي الذي وصف به ماركس المجتمع المدني الحديث.

وعندما يتكلم ماركس عن الحديث ذكر أن العامل لا ينتج السلع فحسب ولكن يصبح هو ذاته سلعة أيضاً.

2. النظرة المعمقة للمجتمع المدني:

تكمن الرؤية المعمقة للتحليل الاجتماعي الليبراري في مفهوم النظام التلقائي ويرى المؤرخ رالف رايكو Ralph Raico أن الليبرالية الحقيقية تتحدد بالاعتقاد بأن المجتمع المدني، أي مجمل النظام الاجتماعي القائم على الملكية الخاصة، يدير بشكل عام نفسه بنفسه.¹⁰

ويقول في هذا فريدريك هايك Friedrich Hayek بأننا نفشل في التمييز بين نوعين من النظام، النظام "المصنوع" أو المخطط مثل الشكات التجارية أو المنظمات المحدودة الأخرى والنظام المنبثق أو التلقائي مثل مجمل النظام الاجتماعي أو عمليات السوق، من المهم جداً تبين هذا التمايز لأن هذين النوعين من النظام مختلفان للغاية.

العديد من الفلاسفة الكبار لم يوفقوا في إدراك وجود النظام التلقائي ف إيمانويل كانت Emmanuel Kant على سبيل المثال، وبالرغم من دفاعه عن الحقوق الفردية، كان يظن بأنه لا يمكن للسلام والنظام أن

⁹ المرجع السابق، ص 24

¹⁰ مجموعة من المؤلفين، مفاهيم الليبرالية ورواها، النظام التلقائي، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 2008، ص 9.

⁷ المرجع السابق، ص 22

⁸ المرجع السابق، ص 23

توماس رينبورو Le Colonel Thomas Rainsborough، وهو من دعاة المساواة، في تصريحه الشهير في مناقشات بوتني أن: "للفقير في انكلترا حياة يحق له أن يعيشها مثله مثل الغني"؛ وأكد آدم سميث في ثروة الأمم أن: "الثروة الحقيقية لامة ما ليست في الذهب والأموال في خزائن الدولة بل فيما يستهلكه الفرد فقط."

وقد وصف الكاتب الليبرالي الفرنسي بينجامين كونستانت Benjamin Constant في كلمة هامة له عام 1833، طبيعة الحرية الفردية في العالم الحديث، وقال: "إننا كثيرا ما نخلط بين معنيين للحرية، حرية المشاركة في الشؤون العامة والحرية الفردية مثل حق العبادة والرأي".¹³

أما أليكس دو توكفيل Alexis de Tocqueville فقد فكر كثيرا بالعلاقة بين الحرية الفردية والمجتمع المدني وأكد أن التشارك بين الناس وسيلة هامة لتحقيق الأهداف الفردية، وذكر بأن في المشاركات المدنية "لا تضحية بالإرادة أو المنطق بل إن الإرادة والمنطق يستخدمان لتخفي النجاح للمشروع المشترك".¹⁴

وأهم النقاط عند المنظرين للمجتمع المدني أن الفرد والمجتمع مشتقان لا متعارضان، وأكد جون ستيوارت ميل John Stuart Mill على أهمية الفروق الفردية وتطوير الفرد لشخصيته، باعتبارهما السبب الذي يجعل الناس بحاجة للحرية حتى من يكتفي منا بتحقيق منفعة؛ كم مجتمع اختار فيه الآخرون طرقا جديدة للعيش فإن بعض هذه الطرق قد يستحق المحاكاة والتقليد.

ويذكر الفيلسوف آين راند Ayn Rand أن الأفراد "هم المبدعون الحقيقيون لأي أيام قادمة مُنحت للبشرية" بمقولة جون ستيوارت بأن الأفراد الذين يكتشفون أفكارا جديدة تستحق المحاكاة أو المنافسة "هم ملح الأرض، وبدونهم تتحول حياة البشرية إلى بركة أسنة" و"حتى

يتواجدا دون إكراه وكارل ماركس لم يكن يستطيع أن يرى سوى "فوضى الانتاج الرأسمالي" وليس الرخاء الهائل الناتج من النظام غير المخطط Le système non planifié الذي كان آدم سميث Adam Smith قد سماه قبل 80 عاما "النظام البسيط للحرية الطبيعية".

أما لودفيغ فون ميزس Ludwig Von Mises، فقد قال بعد قرن من ذلك الوقت في رد وتفنيد لآراء ماركس بأن "الإنتاج فوضوي، وأن تلك العملية التنافسية وغير المخططة هي بالذات التي تنتج النمو الاقتصادي".

3. الحرية والمجتمع المدني:

يبدأ التحليل الاجتماعي الليبرتاري بالفرد وما يميز الانسان أنه لا يمكنه تحقيق شيء دون التعاون مع غيره، فيبقى أن الأفراد هم من يؤلف الشراكات، والموروث الحضاري الغربي قائم على الصراع من أجل الحرية، وإلغاء العبودية وتحرير الناس والأقليات وحرية الأعمال إلى تحقيق كرامة الحرية والمسؤولية لكل فرد، وقد عرض أفلاطون Platon فكرته المكونة من أنفس ذهبية وفضية وحديدية؛ وأن الذهبية منها هي التي يجب أن تحكم، أما أرسطو Aristote، فقد وضع الكثير من أسس الفكر الحديث وأكد على أهمية توجيه الانسان لحياته، واتخاذ قراراته الخاصة بنفسه لتحقيق سعادته، لكنه أيد الفكرة القائلة بأن بعض الناس "مخلوقون لكي يحكموا"، وفي القرن الخامس قبل الميلاد قال احد أتباع المدرسة (السفسطائية)¹¹ الليبرتارية Sophisme libertarien: "لقد أعطى الله للإنسان حريته والطبيعة لم تجعل من إنسان عبدا".¹²

وخلال الثورة الانكليزية في القرن السابع عشر برزت الحرية دفاعا عن حقوق الانكليز وقد ذكر العقيد

¹¹ ولو ان هناك من يرى ان السفسطائية لا تعدوا ان تكون مجرد تيار فلسفي وبالتالي لا ترقى الى ان تصل لدرجة المدرسة.

¹² مجموعة من المؤلفين، الحرية والمجتمع المدني، ترجمة صلاح عبد الحق، ط1، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، مايو 2008، ص10

¹³ المرجع السابق، ص12

¹⁴ المرجع السابق، ص13

مشكلة الاستعمار ليست مشكلة شعوب وإنما أنظمة؛
حسب هؤلاء.¹⁵

وفيما يبدو أيضا فإن الكومنولث أيضا هو مجتمع من الناس مشكل لتحقيق مصالحهم المدنية والمحافظة عليها وتطويرها للأفضل.

4. أدوار المجتمع المدني:

ولأجل ألا يبقى الحاكم أو المسؤول أو المسير بلا رقابة تتجلى هنا أدوار المجتمع المدني؛ كأداة للأسلوب التقليدي المتمثل في الرقابة الشعبية المباشرة ويعد المجتمع المدني أهم أداة لدولة القانون. وهنا تكون دلالة المجتمع المدني كل الروابط والمؤسسات والجمعيات والمؤسسات والوداديات والمنظمات التطوعية والخيرية واللجان المسجد التي تقع خارج كيان الدولة، فتُهيء للأفراد مساحة ملائمة لممارسة نشاطها، سواء في المجال الاقتصادي أو الاجتماعي أو السياسي أو الثقافي، أما التربية المدنية فهي عملية تثقيفية توعوية تهدف إلى إكساب الأفراد ثقافة حديثة تتمحور حول طبيعة المواطنة المرتكزة على منظومة الحقوق المدنية والسياسية، ومع اختلاف التعاريف وتشعبها نجد أنها "حالة تكون فيها مجموعة من الأفراد يقيمون على إقليم معين قد خلقوا تجمعا أو مؤسسات أو ممارسات قادرة إلى حد ما على خلق توقعات شبه مؤكدة بأن هناك تغيرات سلمية ستحدث فيما بينهم."¹⁶

ويعد تواجد المؤسسات المدنية دليلا حضاريا وأبرز حلقات التواصل بين الفرد والدولة. وقد عرف المجتمع المدني أيضا بأنه مجموعة من التنظيمات التطوعية الحرة والتي تملأ المجال العام من الأسرة والدولة، لتحقيق المصالح العامة للمجتمع ملتزمة بقيم ومعايير الاحترام والتآخي والتسامح والتعاون والتنافس والصراع السلمي

الشريف، مع توفر قيم العمل الانساني والادارة السلمية في التنوع والخلاف دون أهداف خارجية ودون ارتباط بالجهاز الاداري أو الحكومي مع وجوب أن يكون فعلها حرا وإراديا مع خضوعه لنظام داخلي ومبادئ وقيم سامية وهادفة.¹⁷

وقد عرفت ندوة المجتمع المدني التي أقامها مركز دراسات الوحدة العربية عام 1992 بأنه "جملة المؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تعمل في ميادينها المختلفة على استغلال سلطة الدولة لتحقيق أغراض متعددة منها أغراض سياسية كالمشاركة في صنع القرار على المستوى الوطني والقومي" ومثال ذلك الأحزاب السياسية ومنه أغراض نقابية كالدفاع عن مصالح أعضائها ومنها أغراض ثقافية كما في اتحادات الكتاب والمثقفين والجمعيات الثقافية التي تهدف إلى نشر الوعي الثقافي وفقا لاتجاهات أعضاء كل جماعة ومنها أغراض للإسهام في العمل الاجتماعي لتحقيق التنمية.

ويضم المجتمع المدني عددا كبيرا من المنظمات الرسمية وغير الرسمية مثل: "جماعات اقتصادية" اتحادات وشبكات منتجة وتجارية "جماعات ثقافية" مؤسسات نشر اتحادات دينية واثنية ومجتمعية "جماعات تنمية" منظمات "تجمع لتحسين البنى التحتية، لتنمية قطاع معين "جماعات قضايا" كالدفاع عن البيئة، حماية المستهلك، حقوق المرأة، "جماعات أهلية" تُعنى بحقوق فئة معينة.¹⁸

ولم يعد مفهوم المجتمع المدني اليوم مثل السابق فقد تجاوز علاقة الفرد بالمواطن والمجتمع والسلطة بل أصبح يُعبر عن مدلول أشمل يتجاوز حدود الدولة.

والحديث عن المجتمع المدني في الممارسة الغربية هو حديث عن مفاهيم أكبر وأشمل أولها الديمقراطية وما أثارته من جدل بين المفهوم الليبرالي والمفهوم الشيوعي، إلى أن ظهر مدلول الديمقراطية التشاركية التي تجعل من

¹⁵ المرجع السابق، ص 16

¹⁶ فهمية خليل أحمد العيد، الأدوار التكاملية لمختلف هيئات المجتمع المدني، نشره علمية لحركة التوافق الوطني الكويتي، عدد لمؤتمر التوافق السنوي الثالث، 10 أبريل 2006، ص 06

¹⁷ المرجع السابق، ص 10

¹⁸ المرجع السابق، ص 10

المجتمع المدني أهم الفواعل، وقد حظي المجتمع المدني بهذه المكانة جراء التنظير الذي قدمه الفلاسفة الغرب للمجتمع المدني.

والاشكال لدى الدول العربية هي استعارة المصطلح دون الاهتمام بالجوهر الحقيقي لدور الفواعل الهامة (المجتمع المدني، الإعلام الثقافية، الديمقراطية...) بالإضافة إلى اشكالية خروج المجتمع المدني عن النسق الحقيقي ليصل لدرجات من الانحراف أو الضغط وما في حكم ذلك أو أن يحصل التغييب في حال فاعليته.¹⁹

ثانياً: مراحل نشوء المجتمع المدني:

1. المجتمع المدني الأوروبي:

في القرون الوسطى كانت المجتمعات خاضعة للسلطة الكنيسية، غير أن عصر النهضة الدينية إلى النظرة المدنية (المرتبطة بالمدنية) فتمخض عن ذلك مصطلح المجتمع المدني كبديل عن المجتمع الديني.

وقد حظيت فكرة المجتمع المدني بداية الأمر في اسكتلندا (فترة التنوير) خلال القرن الثامن عشر وبعد الفيلسوف الاسكتلندي آدم فيرجسون Adam Ferguson أول من تناول الاكتشافات النظرية عندما قدم نظرية لذلك في كتابه الصادر عام 1767 حول تاريخ المجتمع المدني، إذ أوضح المراحل التي سبقت نشوء المجتمع المدني: المرحلة الوحشية، التصرف بالفرائز، المرحلة البربرية، عند ظهور الملكية الخاصة، مرحلة المجتمع المدني، بعد ظهور الروابط الاجتماعية.

في حين اعتبر هيجل المجتمع المدني بأنه مجال وساحة للنزاع والتفكك وتبادل الخدمات أما انطونيو غرامشي المفكر الايطالي فقد اعتبر المجتمع المدني جزء من البنية القومية وأنه يحوي العلاقات الثقافية الايديولوجية ويضم النشاط الروحي العقلي؛ وظهرت وفق ما سبق فكرة المجتمع المدني وارتبطت بتاريخ نضال الشعوب من

أجل الديمقراطية والحرية والمساواة ضد حكم الملوك والمستبدين في أوروبا وكانت الحاجة ملحة لأجل تأسيس منظمات وتجمعات للدفاع عن تلك الحقوق.²⁰

2. المجتمع المدني الاسلامي:

أ. المجتمع المدني في عهد النبوة:

المجتمع المدني قبل الهجرة: تعد تسمية يثرب التسمية القديمة للمدينة المنورة، واحة خصبة وافرة المياه وقد ورد ذكر تسمية يثرب في الكتابات المعينية بما يدل على قدمها.²¹

- نظام المؤاخاة أساس المجتمع المدني في عهد النبوة: اعتبر الاسلام المؤمنين إخوة قال تعالى "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ" واستوجب تجسيد ذلك بالمؤاخاة والتناصح والتعاون حيث قال صلى الله عليه وسلم "الدين النصيحة" وقال عز وجل "وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ".

وقد كان في احتضان الأنصار للمهاجرين الدرس البليغ لمعاني الأخوة والتضامن فقد آوهم ونصروهم وقاسموهم ما يملكون؛ وعلاقة المؤمنين قائمة على الاحترام المتبادل فلا يستعلي غني على فقير ولا حاكم على محكوم ولا قوي على ضعيف قال صلى الله عليه وسلم "بحسب امرؤ من الشر أن يحقر أخاه المسلم".

وقد حرم الإسلام هجر المسلم لأخيه فوق ثلاثة أيام" ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام".

وقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم دستوراً لأهل المدينة ينظم العلاقات فيما بينهم وقد اعتمد الباحثون المعاصرون على الصحيفة الدستور كنص لمعرفة التنظيم المجتمعي للمدينة المنورة. ويقول هنا المستشرق برنارد لويس Bernard Lewis في كتابه اللغة السياسية في الاسلام The political language of Islam "أنه فكرة أساسية في الذهنية الاسلامية أن تكون الحكومة محدودة

²⁰ المرجع السابق.

²¹ أكرم ضياء العمري، المجتمع المدني في عهد النبوة، خصائصه، وتنظيماته الأولى، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المجلس العلمي، إحياء التراث الاسلامي، ط01، 1989، ص57.

¹⁹ النعيمي عبد الرحمن، مطلب الديمقراطية وحقوق الانسان وتنمية المجتمع المدني في أقطار مجلس التعاون لدول الخليج العربي، المستقبل العربي، عدد أوت 2005، ص100

يتأتى للدول أن تؤدي كل أدوارها بمعزل عن أدوات مكملية نابغة من قنوات اجتماعية ممثلة في المجتمع المدني.

المجتمع المدني نظام مكمل فإن عجز في إدارته لنفسه وتنظيمه لنفسه فهو لغيره أعجز. وإن كان الواضح أن المجتمع المدني إما أن سلبيا أو أن يكون أداة في يد النظام.

وفي الأنظمة الحديثة نجد إما التوافق أو التضاد بين منظمات المجتمع المدني والجهات الحكومية، وإن كان الأصل هو التوافق والتكامل لأن الهدف هو المصلحة العامة وحماية الحقوق والحريات العامة.

ويكون للتربية المدنية دور هام وفاعل جدا في ترسيخ بناء الدولة الديمقراطية والحديثة، وأن درجات الوعي هي المحقق لمسائل التكامل والتعاون، وكلما كانت مستويات الوعي متدنية كلما قلت فاعلية منظمات المجتمع المدني وزاد ذلك في الاستبداد والتسلط لأن مؤسسات المجتمع المدني تعد معاهدا للممارسة الديمقراطية.

وأبرز الأدوار الحقوقية والانسانية التي يؤديها المجتمع المدني:

- دعم الحقوق والحريات ومناهضة كل مساس بهما وكفالة ما يعجز الأفراد عن تحقيقه؛ وهذا جراء الطابع الاحترافي والقانوني الذي يحوزه المجتمع المدني ونتيجة ادرك المجتمع المدني للحلقات التي توصله لحل المشكلات الحاصلة، وقد يكون المجتمع المدني المعتمد على النخب علمية واعية مما يسهل عليه عملية التواصل أو الشجب لبعض التصرفات السلطوية الماسة بالحقوق والحريات.
- الاسهام في دعم ثقافة السلم والتسامح في الدولة ونبذ كل مظاهر العنف والتطرف والصراع.

- دعم الشعور بالمواطنة والانتماء والتأكيد على مقومات الهوية والانتماء الحضاري.

- دعم اداء الجماعات المحلية ويني قدرة الفرد في المشاركة التمثيلية محليا ووطنيا.

- تحقيق الرأي العام الواعي المستعد لتحمل المسؤوليات الاجتماعية والاقتصادية. يحقق المجتمع المدني

الصالحية." ومن حيث المبدأ والنظرية كان الحاكم المسلم مقيدا وله حدود أكثر من ملوك النصارى. وبفضل العمل التطوعي والوقفي في شتى المجالات كان المجتمع في أرقى صورته في شتى مجالات الصحة، والتربية والتعليم، معاهد وجامعات، البناات الطرقات وغيرها.

ثم إن المجتمع المدني في الاسلام مبني على نظرة تكاملية بين كل أفراد المجتمع وكل فرد هو عنصر فاعل ضمن هذا الكيان الكلي، وأن الحكومة فيه خادمة للشعب وليست سيدة عليه.

وعن أوجه المقاربة بين المجتمع المدني الغربي والاسلامي الحقيقي نجد: المدينة في أوربا كانت نتيجة صراع طويل مع الكنيسة. أما في المنظور الاسلامي فهي جزء لا يتجزأ من الاسلام وأن قوله عز وجل: "هذه أممكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون" المؤمنون الآية 52، أوضحت مفهوم المجتمع وقوله تعالى: "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم" صورة النساء الآية 59، وقال أيضا عز وجل "وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل" صورة النساء الآية 57، وقال عز وجل: "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر" صورة آل عمران الآية 104، إشارة إلى هادفية المجتمع المدني.

ظهر المجتمع المدني من رحم العلمانية المناهضة للسلطة البابوية المسيحية، أما الاسلام فالوضع يختلف عن ذلك، ويقول عادل ظاهر في كتابه الاسلام والعلمانية "وكان يوجد قبل القرن 18 في المجتمع الاسلامي شيء اسمه المجتمع المدني له شريعته، لأن الدولة في الاسلام سلطتها محدودة بخلاف الدولة التيقراطية الأوروبية في القرون الوسطى التي كانت لها سلطة وسيادة مطلقة.²²

ب. دور المجتمع المدني في بناء الدولة الحديثة:

إن المجتمع المدني والدولة متكاملان وكل نظام يكمل الآخر فلا يمكن أن يتحقق دور المجتمع المدني دون وجود دولة عادلة وقوية تقوم على مؤسسات دستورية حقيقية، ولا

²² المرجع السابق، ص 17.

مستويات متفوقة من التربية والتعليم ودعم العديد من المشاريع الانسانية والخيرية داخليا ودوليا.²³

- دعم توجهات الإصلاح والتحول الديمقراطي: فموجة الإصلاح الديمقراطي (التحول الديمقراطي) هي جوهر تطور دور مؤسسات المجتمع المدني، وقد عُرِفَ التحول الديمقراطي بأنه "مرحلة انتقالية نحو ديمقراطية يتم فيها تجسيد حقوق الانسان، وتفعيل المواطنة عبر الآليات المتعارف عليها من مساواة وحرية وإعلاء لحكم القانون".

وتتجلى آليات التحول الديمقراطي فيما يلي: تفعيل دور المجتمع المدني، ترشيد السلطة، التعددية السياسية، المشاركة السياسية والشفافية، بناء ثقافة سياسية ديمقراطية وتعزيز دور الإعلام، بيان دور المعارضة.

كما يعد المجتمع المدني الراعي لاستمرار الدولة وقوتها عند تقهقر النظام أو وجود اعتداء خارجي حيث يعتمد المجتمع المدني إلى الذود والدفاع عن مقومات الدولة والمجتمع. ففي الصومال ومالي مثلا أدى الاعتماد المطلق على الدولة إلى السقوط لكيان الدولة ودخولها في دوامة، وفي فلسطين أسهم المجتمع المدني من جمعيات ومنظمات الإغاثة في دعم الجرحى والمصابين، وفي الجزائر اسهمت الكشافة الاسلامية في اعداد جيل قائم على الوطنية الصرفة، ونفس ما قامت به جمعية العلماء المسلمين قبل وبعد الاستقلال.²⁴

ثالثا: مخرجات هيئات المجتمع المدني

إن الحديث عن المجتمع المدني وأدواره هو حديث عن المدنية والحضارة التي تصل فيها السلوكات الانسانية إلى درجة الابداع في التعامل مع الذات ومع الآخر خلال الحركة والسكون، حال الشدة والرخاء، وتتجلى أبرز هذه الأدوار الحضارية في تكريس مبدأ الحوار الحضاري والتسامح؛ حيث أن التسامح الانساني أبرز سمات

الانسان وكل متسامح ملك، ولا يستشعر المرء السعادة المحضة إلا بالتسامح، ولا يعني ذلك الخنوع والخضوع.

وقد انتهت منظمة اليونسكو للتربية والثقافة والعلوم إلى مسألة التسامح ودورها في تقوية المجتمع الداخلي والمجتمع الدولي فأصدرت في 16 نوفمبر 1995، اعلانا يتضمن المبادئ الأساسية للتسامح، كثقافة تربوية ونفسية واجتماعية؛ وقد أصبح هذا اليوم ومنذ المؤتمر العام لليونسكو في دورته 28 يوما عالميا للتسامح.

وقد جاءت الشريعة الاسلامية بالعديد من الشواهد الدالة على التسامح والحائنة عليه منها قوله تعالى: "وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا" صورة البقرة الآية 83، وقوله عز وجل: "وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" صورة النحل الآية 125، وكذا قوله: "وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" صورة فصلت الآية 34.

وقد قال عالم الاجتماع البارز كلود ليفي شتراوس Claude Lévi-Strauss في كتابه مدارات حزينه Tristes Tropiques : "إن الاسلام هو الذي ابتكر التسامح في الشرق الأوسط والحق بنا بدل أن نتحدث عن التسامح أن نقول أن هذا التسامح ضمن حدود وجوده هو بمثابة انتصار دائم للمسلمين على أنفسهم فقد وصفهم النبي، حين أوصاهم به في وضع حد للأزمة الدائمة التي قد تنجم عن التناقض بين الدعوة العالمية للتنزيل وبين التسليم بتعدد العقائد الدينية. والتسامح بذلك هو منظومة حضارية فكرية ثقافية متكاملة والتسامح وثيق الصلة بالحقوق والحريات التي لا تنفك عن التسامح وإلا عمّت الفوضى".²⁵

1. في مدلول المجتمع المدني العالمي وصلته بالحقوق والحريات:

يعد هذا المصطلح حديثا وقد تم تعريفه سنة 2002 بأنه: "تلك التنظيمات التطوعية الإرادية غير الحكومية التي تنشط عبر الحدود وتتصدى لقضايا ذات طبيعة عالمية مثل حقوق الانسان، الديمقراطية، البيئة وقضايا

²³ المرجع السابق، ص 20.

²⁴ وغيرها من المؤسسات الوطنية الفاعلة كمؤسسة مفدي زكريا ومؤسسة الأمير عبد القادر الجزائري وغيرها.

²⁵ المرجع السابق، ص 42

التنمية، وقد عبر عنه بمفاهيم مقارنة وهي المنظمات الدولية غير الحكومية.²⁶

وأول ما ظهرت فكرة المجتمع المدني العالمي عند إيمانويل كانت حيث أن فكره يركز على تطوير عقلانية كونية مؤسسة للديمقراطية أي محاولته التنظير لنموذج كوني يعتبر النظام الديمقراطي هو النموذج العقلاني والأمثل، الفلسفة المثالية لكانت هي السبب في فشل تصوره هذا ما أدى إلى الذي يعتقد منتقده يورغن هابرماس Jürgen Habermas إمكانية بناء فلسفة كونية، تؤسس لمجتمع مدني كوني ويفترض أن الكائنات البشرية معرفة بكونها كائنات ديمقراطية.²⁷

ويذكر هابرماس أن الخطاب الأخلاقي قائم على:

عدم إقصاء أي طرف، وإمكانية الانتقاد المتبادل (تكافؤ الفرص)، والقابلية والاستعداد الإيجابيين للتعامل مع الآخر، وشفافية التعبير عن النوايا. ويؤكد أيضا على أن المجتمع المدني يخضع لمصالح الأفراد ومدى تواصلهم مما يشكل أطارا عالميا لتعاونهم وهذا ما يقيم مجتمعا مدنيا عالميا.

2. أبرز عناصر المجتمع المدني العالمي، وتتمثل فيما يلي:
أ. المنظمات غير الحكومية: وهي منظمات ذات طابع دولي تعمل على صعيد تمويلي وفني لأجل المساعدة ودعم الدول أثناء الكوارث والأزمات المختلفة.²⁸ وتشتغل المنظمات غير الحكومية كعنصر في المجتمع المدني

²⁶ سمير مرقس، المواطنة والتغيير، دراسة أولية حول تأصيل المفهوم والممارسة، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، 2000، ص 49 باري عبد اللطيف، المجتمع المدني العالمي، مذكرة ماجستير، قسم العلوم السياسية، جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر، 2007، ص 48.
²⁷ أماني قنديل، تقرير المجتمع المدني العالمي، 2000، جامعة أكسفورد، 2006، باري عبد اللطيف، المرجع السابق، ص 51.

²⁸ الأمم المتحدة سمحت للمجتمع المدني من خلال المنظمات الدولية غير الحكومية إلى حضور اجتماعات المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للأمم المتحدة.

العالمي من خلال برامجها الهادفة لحماية الحقوق والحريات وحماية البيئة وغيرها.

ب. الندوات والمؤتمرات العالمية: خاصة ما تعلق منها بترويج المفاهيم العالمية للمجتمع المدني القائم على الحرية والتنوع، وفق ما أكدته تقرير المجتمع المدني لسنة 2002.²⁹

ج. المجتمعات المدنية المحلية: وهي أهم مكونات المجتمع المدني العالمي، وتتمثل أبرز مبادئ المجتمع المدني العالمي في: الحرية، والتضامن، والتنوع، والديمقراطية. أما عن أهم خصائص المجتمع المدني العالمي فهي تتمثل أساسا في:³⁰ التنظيم، والطابع الخاص، وعدم الربحية، الإدارة الذاتية، والطوعية، والديمقراطية الداخلية، والتنسيق؛ أما عن العلاقة بين المجتمع المدني العالمي والمحلي فالتأثير يكون وفق الآتي: الدعم المالي، ويرعى البنك الدولي مسائل التمويل الخاصة بالمجتمع المدني، بالإضافة إلى التمويل من قبل المنظمات غير الحكومية وحتى الحكومات الأجنبية، وفي مطالب تكريس حقوق الإنسان، وهو أهم أداة. الأمم المتحدة سمحت للمجتمع المدني من خلال المنظمات الدولية غير الحكومية إلى حضور اجتماعات المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للأمم المتحدة.

3. الدولة وابتلاع المجتمع المدني:

يذكر المفكر محمد عابد الجابري: "... وهكذا فالدولة أعني السلطة الحاكمة، هي التي أنشأت لنفسها المؤسسات التي تحتاج إليها وهي التي تغذيها وتوجهها وتمنحها السلطة والنفوذ هذه الدولة تبتلع المجتمع المدني فلا تترك مجالا لقيام مؤسسات خارج الدولة، فكل المؤسسات هي امتداد للمؤسسة الأم، الدولة."³¹

هذه الفكرة الجوهرية التي أشار إليها منذ فترة تعكس واقع الديمقراطية في الدول العربية، وتعكس مستوى

²⁹ باري عبد اللطيف، المرجع السابق، ص 65.

³⁰ المرجع السابق، ص 68.

³¹ محمد عابد الجابري، الديمقراطية وحقوق الإنسان،

مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2004، ص 110.

التطلعات السلطوية تجاه الشعوب ومرجع ذلك إما أن يكون التخوف من فسخ المجال للشعوب خاصة النخب منها حيث أن الحريات السياسية أخوف ما تخافه السلطة؛ مما يجعل مؤشرات الطموح ترتفع، فكلما تم تلبية الضروريات كلما كانت المطالبة بأشياء هي ضمن الجيل الثاني أو الثالث من الحقوق والحريات، أو لأن الشعوب العربية لا زالت في مستويات من التخلف لا يجعلها تعي وتستوعب ما تحتاجه من مجالات حقوقية، وإن كان هذا الاحتمال الثاني موجود حقيقة ومجسد على أرض الواقع، ففي العديد من الدول التي شهدت تغيرات على أصعدة متعددة وصلت إلى واقع مؤلم يحمل كل المظاهر السيئة ولم تعد هنالك لا ديمقراطية مؤسسية ولا تشاركية ولا غيرها. هذا لأن السبب هو انعدام المجتمع المدني الذي يعد صمّام أمان للمجتمع في حال غياب النظام أو حال حصول أزمات لأنه هو الأقرب للأفراد وهو الادري بواقعهم وتطلعاتهم؛ ولكن هذا لا يمنع من أن الاحتمال الأول الأكثر بزوغا وتواجدا على صعيد كل الأقطار العربية. كل هذا يجسد لنا حقيقة ينبغي عدم التغافل عنها مفادها أن مسائل التغيير والتكامل الديمقراطي والاصلاح بشقيه السياسي وحتى الإداري مثلما هو مرتبط بالحكم الراشد يجب أن لا نغفل أيضا عن معاني المواطنة الصالحة؛ هذه الأخيرة التي تجعل الفرد في مستوى من الأداء الإيجابي الذي من خلاله يسهم في فعالية المجتمع عموما دون التوقف عند مستوى من الأداء الإيجابي، الذي من خلاله يسهم في فعالية المجتمع عموما دون التوقف عند مستويات المطالب الاستهلاكية (سكن عمل حكومي تحفيظ الأسعار...) وغير ذلك كثير.

بل يجب أن يكون في مقابل الحقوق أيض واجبات وأدوار فنظافة الأحياء كما هي عبء مرفقي فهي أيضا انشغال مجتمعي يناط بالأفراد أو على الأقل بالمجتمع المدني، الذي يوكل إليه تجنيد وتوجيه الأفراد للقيام بأدوارهم، ويتجسد من خلالها معنى التكامل المصلي والمجتمعي في آن واحد.

وعندما تتحقق أدوار المجتمع المدني بتوضيح معنى الحقوق والحريات والنضال لأجلها ستقام حلقة وصل لتفادي الاتكالية المجتمعية التي يكون فيها الأفراد في درجات من السلبية المتقدمة جدا؛ هذا من جهة ومن جهة ثانية يتمكن المجتمع المدني من الوقوف في وجه مظاهر التسلط والاستبعاد والتعسف في استعمال السلطة أو في استعمال الحق بحد ذاته.

فإذا انعدمت هذه الأدوار الحقيقية للمجتمع المدني النخبوي فستكون المائلات إلى نفق مظلم تصبح درجات العداء فيه على مستويات ثلاثة:

- العداء بين أفراد المجتمع بسبب انعدام العدالة وبسبب نشوء الطبقة الاجتماعية.

- العداء بين الأفراد والسلطة على مستويات محلية ووطنية وتفقد الدولة هيبتها وسلطتها ويحصل بعد ذلك التمرد الجماهيري.

- العداء بين مؤسسات الدولة في ذاتها فالمسائل يتبناها الجميع والأمر السيء يُعزى في الأخير لشخص واحد، وترجع الأمور إلى القبلية والولاءات العشائرية الموجودة لدى المجتمعات البدائية.

ويذكر المفكر محمد عابد الجابري مرة أخرى.... "أما القول إن الديمقراطية تحتاج إلى نضج الشعب 'حتى لا تنقلب إلى فوضى وإنه بالتالي يجب تأجيلها إلى أن يتحقق النضج، فهو قول ينسى أو يتناسى بأن حاجة الشعب للديمقراطية لا يتحقق إلا من خلال ممارسة الديمقراطية".³²

وبين بعد هذا أن الديمقراطية أول ما تم تجسيدها كانت لدى المجتمع ثمة لدى الحكم، والديمقراطية لا زالت بحاجة إلى تأسيس في الوعي العربي المعاصر ما زالت في حاجة إلى جعلها تتحول داخل الوعي العربي من قضية تحيط بها شكوك إلى قناعة لا تتزعزع القناعة العقل

³² محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص 102.

بالضروريات البديهية، مثلما أن الطفل لا يمكنه تعلم المشي إلا من خلال المشي نفسه.³³

وما زاد في درجة كون الديمقراطية غير راسخة وغير مكرسة في العقل العربي هو الواقع المير الذي تعيشه الأنظمة العربية التغني بالديمقراطية، ثم اغتصاب السلطة الاشارة بالديمقراطية ثم تزوير الانتخابات العزف على عود الديمقراطية، ثم التخلف المطبق وكل المظاهر السيئة دون ادنى تجسيد للديمقراطية الاجتماعية كخيار اقتصادي، والذي لا يتحقق إلا بتحقيق الديمقراطية السياسية.

رابعاً: المجتمع المدني ودور الفواعل الاجتماعية الأخرى
ما يلاحظ في خضم انعزالية المجتمع المدني وتغيب أدواره ظهرت فاعلية العديد من الفواعل والجهات غير الرسمية التي لها دورها الذي فاق في كثير من الأحيان أدوار المجتمع المدني؛ ومن بين هذه الأدوار الهامة ما يؤديه أعيان المدينة التي لها أدوار جمّة وكذا بعض الشخصيات الثورية ذا التأثير التغييري على نحو ما سنراه:

1. دور الأعيان: نظراً لبقاء البعد العشائري للعديد من المجتمعات تؤدي الشخصيات النافذة أدواراً كبيرة في حل العديد من المشاكل التي تواجه المجتمع، وهذا ما لاحظناه في حركات الاحتجاج التي شهدتها سلفاً المجتمع الجزائري في العديد من الولايات، وما يلاحظ في هذا ما يلي:

- أن دور الأعيان واضح وبارز منذ القديم ولهؤلاء الدور الكبير جراء ما يحضوا به من احترام من طرف الفئات الاجتماعية كلها، وما يحضوا به من تقدير من الجهات الرسمية هذه المكانة التي جعلته همزة وصل بين المجتمع ومؤسسات الدولة الرسمية.

- وان دور وفاعلية الأعيان تؤدي إلى ضمور دور المجتمع المدني وتقليص أدواره خاصة من لدن الجهات الحكومية التي تحبذ اللجوء إلى الأعيان للعديد من الاعتبارات.

- إشكالية تغير معيار صناعة الأعيان فبعدما كان الأساس هو البعد الديني والعشائري والمكانة الاجتماعية والعلمية والأخلاقية والثورية، أضحى الاعتبار هو البعد المادي دون

سواه، مما أدى لعدم وثوق المجتمع في أدوار الأعيان الذين أصبحت لهم مئارب خاصة في وساطاتهم الهدف منه التقرب إلى السلطة.

- اقتصار الأعيان على بعض المناطق خاصة الجنوبية والصحراوية منها وانعدام ذلك في المناطق الشمالية لتعدد واختلاط الجنس البشري فيها، مما يعدم بزوغ شخصية فاعلة ذات بعد قومي وعشائري، هذا ما يؤدي إلى العديد من المشكلات في ظل غياب المجتمع المدني وغياب دور الأعيان.

2. الشخصيات الثورية التغيرية: بعيداً عن الدور الرسمي للمجتمع المدني أو دور الأعيان تبرز للوجود أحياناً بعض الشخصيات الفاعلية ذات الموهبة التغيرية والإرادة الثورية إزاء الأوضاع المتردية وتعهد إلى حشد الفئات المتضررة والمغلوب على أمرها لأجل مواجهة الوضع المتردي والسيء المشهود، والتاريخ الإنساني وحتى الجزائري شاهدين على العديد من الشخصيات التي توازي أدوار العديد من الفواعل على مر عصور من الزمن، بل وفي تاريخنا الإسلامي شواهد كثيرة للعديد من الفاتحين الذين فتحوا أصقاع العالم بإرادة فذة وعزيمة قوية أدت إلى تعزيز دولة الإسلام مشارق الأرض ومغاربها، وفي تاريخ الجزائر الحديث نجد نماذج كثيرة ومتعددة.

خاتمة:

يعد المجتمع المدني أداة قوية تجمع بين الدولة والفرد ويحاول الموازنة بين معطين أساسيين وهما السلطة العامة من جهة والفرد كمصلحة عامة من جهة ثانية، على أن يكون له الدور الجامع لا الدور المصلحة الذاتي الذي بالإمكان أن يستغل الأفراد كأداة ضاغطة من خلال الاحتجاجات والاضطرابات، وغيرها لتذليل بعض رموز السلطة أو أداة مدهنة سياسية بيد السلطة لامتناس جام الغضب الشعبي أو ما شابه ذلك من أدوار غير إنسانية.

³³ المرجع السابق، ص 103.

مضاعفة العدم لا تزيد سوى العدم وهذا ما يعبر عنه
باصطلاح التشيؤ.³⁴

وعن سلبية أداء المجتمع المدني الكثير من الاحتجاجات
الطلابية والعمالية التي رُفض فيها وجود أي تمثيل من
قبل تشكيلات المجتمع المدني جراء عدم الفاعلية.³⁵

ثم إن عدم وجود مجتمع مدني أصلا أفضل بكثير من
وجود مجتمع مدني سلبي أو في غير الاتجاه الذي يجب أن
يكون عليه..

ويلعب المجتمع المدني الدور البالغ في تجسيد متطلبات
الحكم الراشد الذي تصبوا إلى تحقيقه المجتمعات
الحديثة كما يلعب الدور الكبير في تفعيل معنى المواطنة
الصالحة هذان المعنيان اللذان من خلالهما تتحقق
المعاني الحقيقية للحضارة فلا حكم راشد بدون مواطنة
صالحة ولا مواطنة صالحة دون حكم راشد.

وهذا يتأتى من خلال المجتمع المدني تحقيق مبادئ
الديمقراطية التشاركية القائمة على تقاسم الأعباء
والأدوار لتحقيق البعد الحقيقي لمعاني الحقوق والحريات
الاساسية.

إن المجتمع المدني بهذا المدلول يؤدي الدور الرقابي
بمناحيه الثلاثة الرقابة السابقة والآنية واللاحقة لأعمال
السلطة فيتراوح دوره بين الشجب والدعم؛ أي شجب
التصرفات المشينة التي تؤدي إلى انسداد العمل
الديمقراطي وليس بالضرورة يكون الدور مبنيا على كونه
أداة ضاغطة، بل قد يكون الدور كدعامة للأنشطة
والبرامج المجدية والهادفة لتعزيز البناء الديمقراطي.

ويؤدي المجتمع المدني دوره في التغيير للأساليب المنافية
للديمقراطية ويعمل على ديمقراطية الأعمال السلطوية
والحد من الممارسات التسلطية الماسة تحديدا بالحقوق
والحريات العامة.

والسلبية التي أشرنا إليها سابقا وهي الانسحاب والتوقف
والجمود للمجتمع المدني وانسحابه كأدوار وليس
كأجهزة؛ بحيث تبقى مكوناته وتنتمي معها الأدوار مما
يزيد من سلبية الأداء، ويعد بذلك حجر عثرة في نشوء
مجتمع مدني فاعل، ويزيد من البعد الكمي لا النوعي
ويصبح أداة لتبرير الأنظمة بوجود مجتمع مدني، ولكن

³⁴ من الأوائل الذين أشاروا لهذا المصطلح الدكتور عبد
الحفيظ مراح في تحليله للأجهزة الادارية بعد انسلاخها عن ادوارها
الحوية الحقيقية،
فتحول من بعد أدائي إلى بعد مادي يعكس أشياء جامدة
غير متحركة.

³⁵ وثيقة عن الصكوك الدولية لحقوق الانسان، الصادرة
عن الأمم المتحدة، الجزء الأول من تقارير الدول الاطراف 17- 12-
2003.